معاني
الجوانب الأخلاقية
في الإسلام

تأليف

الدكتور قدور ابراهيم عمار

المهاجي

دار الغرب للطباعة والنشر
1425 هـ 2004مـ

معاني
الجوانب الأخلاقية
في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد تبين لنا من خلال هذه المباحث التي أتينا على نشرها في جريدة الجمهورية اليومية من عام 2003 للميلاد والتي كانت عبارة عن موضوعات رمضانية، قريبة من التاريخ الرمضاني، كنزول القرآن الكريم فيه، وغزوة بدر، وفتح مكة، وليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر، القريبة من أخلاق المسلم التي ترتضيها في أسماها ويرفضها في مذمومها.

وكانت النية أن تبقى هذه المقالات للقراء اليوميين لجريدة الجمهورية الغراء، وأن تحافظ على صفة المقالة اليومية إلا أن إشارة بعض الأصدقاء إلى أهمية هذه المقالات في حياة المسلم اليومية، أوحت إلي أن أجمعها في مثل كتاب يأخذ عنوانا شاملا لها وهو »معاني الجوانب الأخلاقية في الإسلام«.

وأملي كبير في إسهام آخر سيتبع هذه الصفحات التي ركزت فيها على الاقتباس والتضمين لمعاني القرآن والسنة النبوية الشريفة التي لها حجتها المستمدة من واقع الحياة الإسلامية اليومية للناس، في ظل ظـــروف ذات بواعث دينية، غذاها القرآن الكريم والروافد الإسلامية الواسعة الأفق، العميقة الأثر، كالأمانة والصدق والهداية، والالتزام بالآداب الإسلامية المتفقة مع التصور الإسلامي، وموضوعات أخرى من أخلاق وآداب، كالمعاملة الحسنة، وحسن التعامل مع الآخرين، والدعوة إلى مكارم الأخلاق النفسية، من قناعة وصبر وصدق وتواضع وسخاء، ومؤثرات جديدة، المتصلة بالدعوة إلى العلم والحث عليه، لأن العلم كما يراه الشافعي رحمه الله «مغرس الفخر[1] ومزيل العمى من القلوب، والمعين على الدين الذي يرفع المنزلة»، فالعلم عنده أحب الأشياء إلى نفسه، وقد عبر عن ذلك في كثير من شعره، ومنها قوله :

اصبر على مر الجفا من معلم فإن رسول العلم من نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته

ومحاور أخرى كثيرة، تناولت البحث فيها عقيدة وشريعة وواقعا وسلوكا، فوقفت على عدد غير قليل منها أحسبه لم يجمع بين يدي باحث سابق، وإن كانت فرص تلقيها في حلقات المساجد والكتاتيب القرآنية، وسهولة أخذها في ميادين التعليم والتدريس أكثر بكثير من التأليف فيها، أسواء أكان ذلك من

[1] الجوهر النفيس، ص: 25.

حيث الوسيلة والغاية، أم من حيث المنهج والهدف، حتى يتحقق لديه درجات المعرفة التي لا تنال إلا بطريقة العقل والنقل، والجد والاجتهاد، والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور
قدور ابراهيم عمار المهاجي

في ظل شهر رمضان

لقد فرض الله سبحانه وتعالى علينا الصيام، في شهر رمضان كما فرضه على الذين من قبلنا من أهل الملل من لدن آدم عليه السلام، وكانت الحكمة من وراء فرضه، إعداد المؤمن لتقوى الله بترك الشهوات المباحة الميسورة امتثالا لأمره واحتسابا للأجر عنده، إذ أن الصائم لا رقيب له إلا ربه، وإن كملت للإنسان هذه الخلة بحيث لا يقدم على غش الناس ومخادعتهم، ولا على أكل أموالهم بالباطل، ولا على اقتراف المنكرات واجتراح السيئات، واليكن قريب الرجوع بالتوبة الصحيحة إذا ألم بشيء مكروه، امتثالا لقوله تعالى: « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون[2]«، والطيف هنا الوسوسة التي تصيب الإنسان في حالة الغضب، والمعنى إن الذين اتقوا المعاصي إذا لحقهم شيء تفكروا في قدرة الله عز وجل وفي إنعامه عليهم فتركوا المعصية.

والصيام في اللغة: الإمساك والكف عن الشيء.

---

[2] سورة الأعراف الآية: 120.

وفي الشرع: الإمساك عن الأكل والشرب من الفجر إلى المغرب احتسابا لله ، وتمامه اجتناب المحضورات وعدم الوقوع في المحرمات، لقوله صلى الله عليه وسلم «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

وقد فضل الله سبحانه وتعالى الصيام في هذا الشهر « شهر رمضان» الذي اختاره من بين سائر الأشهر بعلمه وحكمته أن ينزل فيه كتابه الكريم وقرآنه العظيم لقوله تعالى: « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان[3]« ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه «أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر» وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المباهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال: « إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأجلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي «.

وقال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم» كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزئ به، وقال الله تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح

[3] سورة البقرة الآية : 185.

المسك، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: «إنما يذر العبد شهوته وطعامه وشرابه لأجلي فالصوم لي وأنا أجزئ به» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه «.

وقال الله صلى الله عليه وسلم» لكل شيء باب وباب العبادة الصوم».

وروى النسائي عن أبي هريرة قال، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أتاكم رمضان شهر مبارك فرضه الله عز وجل عليكم صيامه تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبوا الجحيم وتغل فيه مردة الشياطين لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم».

فالصيام فرض على كل مسلم ومسلمة ما دام مكلفا قادرا على الصوم ولا يوجد عنه عذر من الأعذار الشرعية التي تبيح له الإفطار، وذلك في قوله تعالى من سورة البقرة:

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر[4] «.

ومن حكمة صيام شهر رمضان أنه محرق للذنوب وقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « صوموا تصحوا « وقال بعض العلماء إن صيام شهر واحد في السنة يذهب الفضلات الميتة في البدن مدة سنة كاملة، ومن يصم رمضان راضيا مرضيا مطمئنا لا يجد في نفسه اضطرابا ولا قلقا، بل يصومه

[4] سورة البقرة الآية : 185.

استجابة فعلية لوجه الله سبحانه وتعالى بشيء من التأثر الخالص النافع بالصوم وبشهر رمضان العظيم.

والحكمة من صومه أيضا هي:

التقوى، فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة طاعة لله وإيثارا لرضاه، وهي التي تحرس من إفساد الصوم بالمعصية.

عظمة القرآن[5]

فهو كتاب الله الكريم الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منجما متتابعا في مدى اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما، أو هو اسم لكلام الله تعالى، ويسمى المقروء قرآنا على عادة العرب في تسميتها المفعول باسم المصدر، وهو على ذلك قيل، هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، وبذلك صار القرآن اسما لكتاب الله، كالمكتوب يسمى كتابا، وسمي أيضا المصحف الذي يكتب في كلام الله قرآنا توسعا.

وأول ما نزل منه قول الله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم* الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم[6]»، وذلك في غار حراء في ليلة القدر من شهر رمضان، وآخر ما نزل منها

---

[5] سورة العلق، لسان العرب مادة «قرأ»، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ: 20 / ص: 117 ، في ظلال القرآن ، سيد قطب، والسيوطي الإتقان في علوم القرآن: 1 / 82.

[6] سورة العلق.

قول الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» وذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة يوم الحج الأكبر في السنة العاشرة من الهجرة.

وكلمة قرآن[7] إذا أريد بها القراءة وجب تحقيق الهمزة، كما في قوله تعال: «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا» فإن المراد بالقرآن هنا القراءة في صلاة الفجر، وهي مشهودة تشهدها الملائكة على ما يقول المفسرون، وإذا أريد بكلمة القرآن التعريف بالكتاب العزيز، وجب تسهيل الهمزة، فتنطق الكلمة مضمومة القاف مفتوحة الراء « قرآن»

والقرآن له عدة أسماء فهو:

الكتاب « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه[8]«.

لأن تسميته بالكتاب إشارة إلى أن الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ.

وهو الروح والنور: « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا[9]«.

---

[7] السيوطي الإتقان في علوم القرآن 1 / 86. والبرهان في علوم القران للزركشي، 1 / 278. ولسان العرب مادة "قرأ".

[8] آل عمران الآية: 3.

[9] الشورى الآية (03).

وهو الفرقان: « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا[10]« ولفظ الفرقان في الأصل أرامي، تفيد معنى التفرقة، كأن في التسمية إشعارا بتفرقة هذا الكتاب بين الحق والباطل.

وهو المثاني: «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني[11]«.

وهو الذكر «وهذا ذكر مبارك أنزلناه[12]« ومنها قوله تعالى «لقد أنزلن إليكم كتابا فيه ذكركم[13]«

وهو التنزيل «وإنه لتنزيل من رب العالمين[14]«

وكما تعددت أسماؤه تعددت أوصافه، فهو حينا يوصف بالعزيز «وإنه لكتاب عزيز» وحينا يوصف بالعظيم: «سبعا من المثاني والقرآن العظيم « وحينا يوصف بالكريم: « إنه لقرآن كريم « وحينا يوصف بالمجيد: « ق والقرآن المجيد « وقال أبو المعالي عزيزي، اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما[15]، ومن فقه أهل العلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

---

[10] الفرقان الآية :(25)

[11] الزمر الآية: (39)

[12] الأنبياء الآية: (50).

[13] الأنبياء الآية: (10).

[14] الشعراء الآية (192).

[15] الإتقان في علوم القرآن السيوطي، جـ / ص: 186.

لقد ذكر أهل العلم وأئمة اللغة والفقهاء العربية بأن القرآن الكريم هو آية رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبرى التي قامت حجة بينة على صدقه في دعواه الرسالة، وذلك أن العرب – وهم أهل فصاحة وبلاغة حين سمعوه، زاروا أنفسهم فأحسوا العجز عن أن يأتوا بما يواز يه أو يدانيه أو ما هو قريب منه، وقد كان من أيسر الأمور عليهم – لو استطاعوا أن يعارضوه – أن يظهروا كذب الدعوى به، فيصونوا بذلك مقدساتهم وأموالهم ودماءهم، فلما لم يفعلوا ذلك علموا من أنفسهم من أنهم عجزوا عن الأخذ في سبيل تلك المعارضة، فدل ذلك على أنه من عند الله وعلى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

غير أن القرآن الكريم تعرض في مجمله إلى محاولات خبيثة أرادت النيل من القرآن الكريم والكيد له والتشكك فيه والتهوين من وثاقته في الصدور، إما في جوهره ونصوصه، وإما في تفسيره وتأويله، ومع أن الأمر في مثل هذه المحاولات الخبيثة لا تحتاج إلى كثير بيان.

لقد جمع الله بالقرآن القلوب، وقوى به العزائم ووحد به الأفكار في الأمة الإسلامية، فانعقدت به أواصر ولادتهن، واشتدت به عزائم أخوة لا تلين، ومن أجل ذلك مضى أعداء الإسلام يتربصون بالقرآن الكريم، حينا حول لغته يزهدون أهله ويصرفونهم عنها، وحينا حول تعاليمه يشككونهم في قدرتهم على النهوض وتمكنهم من الحياة القوية من اصطحابهم إياه.

فمهما كانت حججهم ومهما كان سفههم لن يستطيعوا زعزعة الثقة في مستقبل المسلمين، وفي مدى تعلقهم بالقرآن الكريم واعتزازهم به، وفي مدى بقائه بمأمن

من تلعب الأهواء به وتسلط الحقود عليه، فإن شيئا من ذلك لن ينال شيئا من إيماننا برعاية الله له، وحفظه إياه، ثقة بوعده، ولن يخلف الله وعده:» إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

والقرآن بالنسبة إلى ظرف نزوله على نوعين: مكي، ومدني، فالمكي هو الذي نزل على رسول الله مدة مقامه بمكة.

والمدني هو الذي نزل عليه صلى الله عليه وسلم مدة مقامه بالمدينة، ولكل من المكي والمدني مميزات إذا لوحظت أمكن التفريق بينهما، فمن ذلك أن آيات السور المكية في الغالب قصار، بخلاف الآيات المدنية، ومن ذلك، أن الخطاب في الآيات المدنية عنوانه في الغالب « يا أيها الذين آمنوا» وأما الخطاب في الآيات المكية فعنوانه في الغالب « يا أيها الناس « ، ومن ذلك أيضا أن آيات المكي ليس فيها شيء من التشريع التفصيلي، أما التشريع التفصيلي فمعظمه وارد في الآيات المدنية.

ومهما يكن من أمر فإن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز الذي أفحم الفصحاء وأخضع أعناق البلغاء، فإن ذلك لا يخرجه عن كونه عربيا جاريا على أساليب كلام العرب ميسرا للوصول إلى فهمه وتعقل معانيه « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب» فهذه الآية تستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم والاعتبار والاتعاظ، ومن اقتحم ميدان تفسيره بغير فقه باللغة والمام بآدابها وأشعارها، متطفلين على مآدب القرآن، فهؤلاء يندرجون تحت الوعيد الشديد الذي يشير إليه قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

ولعل ذلك يعود إلى عظمة القرآن وعلو رتبته وجلال شأنه وقوة تأثيره لاشتماله على الأدلة التي لا تحمل النقيض، ولروعة بيانه في الهداية والإعجاز، فهو المنهج الكامل للحياة الإنسانية، والنظام الدقيق للبشر، لذلك يجب على كل من يتعاطى التفسير أن يكون ملما بمعانيه ومفاهيمه وتصوراته، فضلا عن أسلوبه وصوره البلاغية، التي هي مظهر إعجازه البياني.

في فضل القرآن[16]

القران الكريم : وهو كلام الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لفظا ومعنى عن طريق الوحي، الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[17]«، أي لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله أو ينسخه.

وقال الكلبي، وقتادة: «لا يأتيه الباطل» يعني الشيطان، «من بين يديه ولا من خلفه» أي أنه لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص، «وإنه لكتاب عزيز» فهو كتاب عزيز من عند الله، ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله، ولا يتطرق إليه باطل.

قال الله تعالى مخاطبا أولياءه الذين فهموه، مبينا لهم فيه مراده فعلموه ما فرطنا في الكتاب من شيء» فقراءة القرآن، حملة سر الله المكنون، وحفظة علمه المخزون، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه، قال

---

[16] الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، اللسان، مادة قرأ. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار، ، الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين.

[17] سورة فصلت الآية: 43 ، القرطبي، جـ / 15 / ص: 366.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله أهلين منا» قالوا يا رسول الله، من هم؟ قال: «هم أهل القرآن أهل الله وخاصته»[18]

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار..»، وروى الترميذي من حديث ابن مسعود: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها»، وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه[19]»، وعن عائشة رضي الله عنها «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض»، ومن حديث أنس «نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن».

ويتضمن بيان العقيدة الإسلامية والفكرة الإسلامية، فهو أهم المصادر فيما يتصل بذلك، وعليه فالعناية به فرض محتوم على كل قادر من المسلمين، وتعلمه واجب على أبناء المسلمين، « لأن القرآن نور وضياء للعالمين، ولهدي الناس إلى سبيل الله وصراطه المستقيم، وقال صلى الله عليه وسلم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه « كما أنه يقول: « القرآن مأدبة الله فخذوا من مأدبته ما استطعتم» أي أنهم يأخذوا منها ما يكون نورا لأبصارهم وهداية لبصائرهم، وتعميرا لقلوبهم وطريقا أمامهم إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

وقد أنزله الله تعالى لتلاوته وتدبره وتطبيقه والالتزام به، كما أنه جل شأنه، أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

---

[18] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، جـ / 1/ ص: 1.

[19] السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ص: 332.

«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا [20]« أي أن الله سبحانه وتعالى أنزله على الطريقة التي هي أقوم وأسد وأعدل وأصوب، ليس فيها من ولا أذى، فهي القول الحق عند من تخافه أو ترجوه، وقال سليمان بن عبد الملك وهو يسأل أبا حزم، فأي المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها، قال: فأي المؤمنين أحمق؟ قال: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

فالواجب على المسلمين أن يرتبطوا بالقرآن ارتباطا تعلما وتعليما، وحفظا وفهما، ونشرا وتبليغا، وخير قراءة للقرآن أن يحرص الإنسان في قراءته على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وأن يقرأه بتفهم وتمهل وتدبر، وأن يلاحظ مواطن الوقف والوصل، وأن يجعل قراءته مفصلة مبينة، لا يسرع فيها إسراعا معيبا ولا يقطع كلماته تقطيعا خاطئا، لقوله تعالى في سورة المزمل « ورتل القرآن ترتيلا[21] « أي لا تتعجل بقراءته بل اقرأه في مهل، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه، والترتيل، التنضيد والتنسيق وحسن النظام.

قال صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحد أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله «، وقال صلى الله عليه وسلم «ما من شفيع أفضل منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره» .

---

[20] من سورة الإسراء الآية : 9.

[21] سورة المزمل، الآية 4.

ولمسلم من كلام أبي أمامة «اقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعا لصاحبه»، وقال صلى الله عليه وسلم «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل قرأ « طه » و « يس » قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجوف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تنطق بهذا.

وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله تبارك وتعالى من شغفه قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين» وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا يناالهم حساب حتى يفزع ما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ورجل أم به قوما وهم به راضون» وقال صلى الله عليه وسلم «أهل القرآن أهل الله وخاصته».

وقال صلى الله عليه وسلم «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: تلاوة القرآن وذكر الموت» وقال صلى الله عليه وسلم «لله أشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته» وجاء في الأثر أن أبا أمامة الباهلي قال: إقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلبا هو وعاء للقرآن، وقال ابن مسعود: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين، وقال أيضا: إقرأوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر- حسنات أما إني لا أقول: الحرف «**آلم**» فالألف حرف واللام حرف والميم حرف، وقال أيضا لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله ورسوله صلى الله عليه

وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال عمرو بن العاص: من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه.

وقال أبو هريرة: إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل، ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين.

وقال أحمد بن حنبل: رأيت الله عز وجل في المنام فقلت: يارب ما أفضل ما تقرب به المقربون إليك قال: بكلامي يا أحمد، قال قلت: يارب بفهم أو بغير فهم ؟ قال: بفهم وبغير فهم.

وقال محمد بن كعب القرضي: إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط.

وقال الفضيل بن عياض: ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه.

وقال أيضا: حامل القرآن حامل راية الإسلام، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يغلو مع من يغلو تعظيما لحق القرآن، وقال صلى الله عليه وسلم، «يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة، فيوقف في أول درجة الجنة ويقال له اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

وقال عمرو بن ميمون: من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا.

وعليه فمن كان يستطيع القراءة، فعليه بقراءة القرآن، فله في كل حرف من حروفه حسنة، وقال عمر بن العاص: كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم، فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور.

فالواجب على من خصه الله بحفظ القرآن أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عباراته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه، ويقوم بقسطه، ويوفي بشروطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، لأن الله سبحانه وتعالى جمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

من هدي القرآن

قال تعالى

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء «24» تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون «25» ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»26» يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويظل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء»27»[22].

- بيان المثل الأول:

ابتدأ البيان المثل بقوله تعالى « *ألم تر*» أي ألم تعلم علم اليقين أيها الإنسان كيف ضرب الله مثلا ووضعه في الموضع اللائق به والخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم، والقصد من كان يدعوهم الرسول ممن اتبعه وممن لم يتبعه.

[22] سورة ابراهيم، الآية : 24 ، 25 ، 26 ، 27 .

أما الذين اتبعوه فلتأكيد أن ما جاء من الكلمة الطيبة هو الحق الذي لا مناص منه، وأما الذين لم يتبعوه فلا براز ما يجب عليهم اتباعه في صورة جلية واضحة تزيح عنهم العذر كلية.

«كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» والكلمة الطيبة، هي لا إله إلا اله، والشجرة الطيبة هي المؤمن،وقال عليه الصلاة والسلام في حديث ابن عمر « إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن، خبروني ما هي- قال – هي النخلة»[23]، وقال عليه السلام «وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة»، وقال عليه السلام:»مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به».

والكلمة الطيبة هي التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا الناس إليها وأقام الأدلة القاطعة التي لا تحتمل النقيض على حقيقتها وإثباتها، وفي منهجها الذي هو الصراط المستقيم، وفي غايتها التي هي النتائج الحسنة، والطيب من كل شيء البالغ النفع الذي لا ضرر فيه، وهذه الشجرة أصلها ثابت لا يزول ولا تستطيع العوامل الطبيعية أن تجتثه وتقتلعه لأن الجذور تمتد إلى آماد بعيدة، فيزداد أصلها امتدادا إلى أسفل، ويزداد ساقها امتدادا إلى أعلى فتمتاز بالثبات والعلو وتزداد بذلك حيويتها فتأتي بالثمر في

[23] حديث صحيح أخرجه مالك في الموطأ من رواية أبي القاسم وغيره ..... «

غاية نموه وكماله وحلاوته المقصودة منه. فلذلك عبر الله سبحانه وتعالى عن علوها فقال: «وفرعها في السماء».

وختم البيان هذا المثل بقوله تعالى: « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» فهذا تصريح بحكمة ضرب المثل في بيان الصفات العجيبة وغايتها للناس الذين أعطوا التفكير والعقل يرشدهم إلى النافع فيريدونه، والضار فيجتنبونه.

وأما بيان المثل الثاني الذي جاءت به هذه الآية في قوله تعالى: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»26».

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى مثل الكلمة الطيبة التي تجني لصاحبها كل خير وتجلب له كل نفع، شرع يبين في هذه الآية مثل الكلمة الخبيثة، القبيحة الضارة، فهي مفسدة لمسيرة الحياة لكل من تلبس بها فلا يجد صاحبها اطمئنانا، ولا استقرارا بل هو في قلق وحيرة وهلع واضطراب طول حياته، وقد عبر الله هنا عن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة التي تحمل ثمرا ضارا مهلكا، تقتلع جذورها بسهولة وتستأصل بسرعة، لأنها لا أصل لها ثابت حتى تتمكن من امتصاص غذائها ولا ساق لها تتفرع عنه فروع خصبة، فهي عديمة الأصل عديمة الفرع.

فبعد أن ضرب الله المثل في بيان الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، يقرر النتيجة المترتبة على كلتا الكلمتين بقوله تعالى:» يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويظل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء»، أي أنهم صدقوا بالكلمة الطيبة والتزموا بما اقتضاه من أوامر وتكاليف بالقول الثابت المعبر عن الحقائق الثابتة «في الحياة الدنيا وفي الآخرة» بالإيمان المستقر في الضمائر المثمر بالعمل الصالح، وبوعدهم الحق بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة، «ويضل الله الظالمين» بظلمهم وشركهم وبعدهم عن نور الكلمة الطيبة واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات، ويقال أنه ليس للمشرك أصل يعمل به «ويفعل الله ما يشاء» أن يفعل على حسب حكمته وإرادته المطلقة.

وخلاصة ما جاءت به هذه الآيات، أن الشكر لله سبحانه وتعالى يزيد النعم، وأن الفكر يزيلها، وأن الكافر بالنعمة له عذاب شديد والله ورسوله أعلم.

معاني الفتح

غزوة بدر الكبرى

قال الله تعالى:

«ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتيكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين [24]«

لقد وقعت غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من شهر رمضان المبارك، يوم جمعة لثمانية عشر شهرا من الهجرة.

وبدر ماء هنالك وبه سمي الموضع، قال الشعبي:كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدرا، وبه سمي الموضع.

ومن الأسباب التي أدت إليها هو حالة المسلمين الاقتصادية المتردية يومئذ، لأن أكثر المهاجرين فروا بأنفسهم وعقيدتهم من مكة وتركوا أموالهم، ولأن

---

[24] سورة آل عمران. الآية: «123، 124، 125، «، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سيد قطب في ظلال القرآن، السيرة النبوية لابن هشام، طبعة الحلبي، جامع البيان للطبري، الكامل في التاريخ جـ / 2 / 116، دار صادر بيروت،

الأنصار شاركوا المهاجرين بأرزاقهم القليلة، فأخذوا يفكرون في استخلاص أموالهم من قريش.

وبما أن الطريق التجارية الحيوية بين الشام ومكة أصبحت تحت رحمة المسلمين وحلفائهم، ومعنى ذلك موت تجارة قريش وتردي مركزها التجاري والاقتصادي، مما جعل قريشا تفكر في انتهاز أول فرصة للقضاء على الدين الجديد، وكان اليهود في المدينة يثيرون الحرب الباردة ضد المسلمين ويحاولون اختلاق المشاكل.

وقد بلغت قوة المسلمين «350» رجلا من المهاجرين والأنصار بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان معهم فرسان فقط وسبعون بعيرا يتعقب الرجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد.

بينما كان عدد المشركين «950» رجلا أكثرهم من قريش، معهم مائتا فرس يقودونها وعدد كبير من الإبل لركوبهم وحمل أمتعتهم، وكانت هذه القوة بقيادة عدد من رجالات قريش.

وكان هدف المسلمين، الاستيلاء على القافلة التجارية لقريش بقيادة أبي سفيان إلى الشام، وقد أراد المسلمون اعتراضها في غزوة «العشيرة» ولكنها تملصت منهم، ففظلوا البقاء في بدر بعد إفلات القافلة حتى يتسامع المشركون بقوة المسلمين فيها بوهم ويتركوا لهم حرية نشر الدعوة لدينهم، وظل المسلمون في مكانهم يتحينون عودتها، وعند عودتها ندب الرسول المسلمين للخروج إليها بقوله صلى الله عليه وسلم لها «هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها» وخف بعض الناس وثقل بعض، لأنهم لم يظنوا أن الرسول

سيخوض معركة حاسمة ضد المشركين، بل ظنوا أن هذه الغزوة ستكون عبارة عن مناوشاة كما حدث في السرايا والغزوات السابقة.

وأما المشركون فكان هدفهم حماية القافلة التجارية القادمة من الشام، ولكنه عند إفلات القافلة من أيدي المسلمين تضاربت الآراء في القتال أو العودة، فغلب رأي القائلين بالقتال للأخذ بثأر عمرو بن الحضرمي للقضاء على قوة المسلمين ولتعرف العرب قوة قريش وسطوتها.

تحركت قوة المسلمين من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بالترتيبات التالية:

* دورية استطلاعية أمامية للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة ونوايا قريش.

* كتيبتان: كتيبة المهاجرين ورايتها مع علي بن أبي طالب، وحمير بن هاشم، وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ وهاتان الرايتان سوداوان، وأما مؤخرة المسلمين فكانت بإمرة قيس بن أبي صعصعة، وكانت راية المسلمين العامة فيها بيضاء مع مصعب بن عمير بن هشام.

انطلق المسلمون مسرعين خوفا من إفلاتها وبثوا أعينهم في كل الجهات يتعرفون الأخبار، فجاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بما بلغه من أمر قريش طالبا مشورتهم، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قان المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: أنت

وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى 'برك الغماد' –وهو موضع في أقاصي - لجادنا معك من دونه حتى تبلغه».

فسكت الناس فقال عليه الصلاة والسلام: أشيروا على أيها الناس، وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعون أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على صد اعتداء خارج مدينتهم، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن يهاجمه في المدينة، وعندئذ حس الأنصار أن الرسول عليه الصلاة والسلام يريد سماع رأيهم، فقام سعد بن معاذ: «لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا: إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

واتحلوا جميعا حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم أمام قواته وبصحبته أبو بكر، فأرسل عليه السلام دورتين للاستطلاع غرضهما الحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها، وكان عليه السلام يشاور أصحابه في كل أمر يهم القيام به آخرها رأي الحباب للرسول عليه الصلاة والسلام قوله: «يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنعسر فيه ثم نغور ما وراءه من

الآبار ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، أنفذ الرسول هذا الرأي، وأعلن لأصحابه «أنه بشر مثلهم، وأن الرأي شورى بينهم، وأنه لا يقطع برأي دونهم، وأنه في حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم».

وكانت قريش قد أعدت عدتها وخرجت خاضعة لرأي دعاة الحرب وعلى رأسهم أبو جهل، أشد الناس عداوة للرسول صلى الله عليه وسلم وعامر بن الخضرمي أخو عمرو بن الخضرمي الذي قتله المسلمون ولم يتخلف من أشراف قريش غير أبي لهب الذي أرسل مكانه رجلا آخر،وقد حشدوا كافة القادرين على حمل السلاح من قريش وحلفائهم.

وعندما تأهب الطرفان للقتال اعتمد كل واحد من الفريقين خطته القتالية، فكان عليه الصلاة والسلام أن رتب المقاتلين في صفوف وساوى بينهم بعد أن شجعهم وحرضهم على الصبر في القتال، كما أمرهم أن يصدوا هجمات المشركين وهم مرابطون في مواقعهم وقال لهم «إذا اكتنفتكم القوم فانضحوهم بالنبل، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا» وقد أخبرهم بأن تكون كلمة السر بينهم في القتال أحد ، أحد، دخل المسلمون القتال بقيادة كاملة وبسيطرة لقائد واحد، وبأسلوب جديد في القتال لم تعرفه العرب من قبل، هو أسلوب الصف.

أما المشركون فقد مارسوا أسلوب الكر والفر بدون قيادة ولا سيطرة بحيث جرى قتالهم كأفراد لا كمجموعة موحدة، وركزوا هجومهم على الحوض الذي بناه المسلمون وفيهم يقول الأسود بن عبد الأسد» أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه» فتصدى له حمزة فضربه بالسيف ضربة أطارت نصف صاقه واستمر يقاتله حتى قتله فيه، وكان النزال بين الطرفين الذي كان

الغلبة فيه للمسلمين، فاستشاط المشركون غضبا لهذه البداية السيئة فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم وهاجمهم فرسانهم، إلا أن صفوف المسلمين بقيت صامدة في مواضعها تصوب نبالها على المشركين، ولم يفطن المشركون لأسلوب المسلمين الجديد في القتال، ونزل عليه الصلاة والسلام بنفسه إلى المعركة يقود صفوف المسلمين نحو فلول المشركين التي فقدت قادتها، حتى بعثرت صفوفها وبدأت مطاردتهم، وقد دامت المعركة يوما كاملا وفضل المسلمون ساعتها البقاء في بدر ثلاثة أيام بعد انتهاء المعركة ثم غادروها عائدين إلى المدينة، وكانت هذه الوقعة نصرا مؤزرا للمسلمين وكارثة كبرى على المشركين

وخذل المشركون في هذه المعركة ورجعوا إلى مكة مقهورين وأخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أصبح هو رئيس قريش بعد مقتل من قتل من صناديد قريش.

فتح مكة

قال الله تعالى:

«إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا[25]«

النصر: العون، مأخوذ من قولهم قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها. يقال: نصره على عدوه، أي أعانه. والمقصود بهذا النصر هنا، هو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم على قريش، وأما الفتح: فهو فتح مكة، وقد نزلت هذه السورة في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع، بعد أن تحقق النصر لنبيه الكريم في هذا الفتح المبين، دونما فتنة أو إراقة الدماء.

لقد أتاحت هدنة الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود في المدينة، كما أتاحت لهم السيطرة على القبائل شمال المدينة حتى حدود العراق والشام وانتشر الإسلام بين القبائل العربية كلها، فأصبح الإسلام قويا، ولم يبق يومئذ

---

[25] سورة النصر، وهي ثلاث آيات، تفسير المراغي، جـ / 30، ابن سعد، الطبقات الكبرى جـ / 3 .القرطبي الجامع لأحكام القرآن، جـ 20 ، ص: 229، السيرة النبوية لابن هشام. الكامل في التاريخ جـ / 2 / 239.

أمام المسلمين إلا الاستيلاء على مكة، الذي لولا صلح الحديبية الذي ظل الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على الوفاء به لكانت قد احتلها المسلمون.

لقد أدى انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش وبقاء القسم الآخر على الشرك إلى تفرق كلمتها واستحالة جمع كلمتها على محاربة المسلمين، مما أدى إلى نقض الهدنة التي وقعت بين المسلمين وحلفائهم من جهة وقريش وحلفائها من جهة ثانية، وكان السبب في انتهائها قريش وبنو بكر، وقد حمل الخبر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن سالم الخزاعي وقد أجابه الرسول عليه السلام: نصرت يا عمرو بن سالم، فعزم الرسول عليه السلام على فتح مكة.

وقد قدر معتدلو قريش وعقلاؤهم ما ذا يعنيه انتهاء الهدنة بينهم وبين المسلمين، فقرروا إيفاد أبي سفيان إلى المدينة للتثبت بتثبيت العهد وإطالة مدته، ووصل أبو سفيان يثرب، واستشفع بابنته أم حبيبة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، فردته واستشفع بأبي بكر وعمر وفاطمة بنت رسول الله واستشفع بعلي فاستنصحه بعد أن اشتدت عليه الأمور أن يعود من حيث جاء، فعاد أبو سفيان إلى قريش ليخبر قومه بما لقي من صدود.

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه بإنجاز استحضاراتهم للحركة، وأرسل من يخبر قبائل المسلمين بإنجاز استحضاراتهم للحركة أيضا كما أمرهم أن يجهزوه ولكن أحدا لم يعلم بنوايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما اقترب موعد الحركة أخبرهم بأنه سائر إلى مكة، وكان تعدادهم عشرة آلاف بقيادة

الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي طريقهم إلى مكة ترك المسلمون المدينة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

وكانت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم لدخول مكة كالآتي:

- الميسرة بقيادة الزبير بن العوام واجبها دخول مكة من شمالها.
- الميمنة بقيادة خالد بن الوليد واجبها دخول مكة من جنوبها.
- قوات الأنصار بقيادة سعد بن أبي عبادة واجبها دخول مكة من الغرب.
- قوات المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح واجبها دخول مكة من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند. دخلت قوات المسلمين مكة، فلم تلق مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد، واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين، وعلى أبواب مكة عسكر النبي عليه الصلاة والسلام في منطقة جبل هند بعد أن سيطرت قواته على جميع مداخل مكة، فلما استراح نهض والمهاجرين والأنصار بين يديه وخلفه حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت العتيق وحول البيت، ويطعن الأصنام بالقوس ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»، ثم فتح الكعبة وطهرها من الصور التي كانت تملأها ثم صلى ودار في البيت مكبرا ، ووقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ما ذا يصنع فقال: «الإله إلا الله وحده لا شريكة له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو مال تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحج، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير، يا

معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا «خيرا أخ كريم وابن أخ كريم»، وحدث يومها بأن رجلا من المشركين أراد اغتيال النبي عليه السلام وهو يطوف بالكعبة، بل تلطف معه، فقد اقترب منه فضالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتله، فنظر إليه النبي عليه السلام نظرة عرف به طويته، فاستدعاه وسأله: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء كنت أذكر الله» فضحك النبي وتلطف معه ووضع يده على صدره، فانصرف الرجل وهو يقول: «ما رفع يده عن صدري، حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه».

لقد كان عليه السلام يستهدف من حرصه على السلم تأليف القلوب وتوحيد كلمتها لتقبل على الإسلام، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذي آلت إليه وهي سيدة العرب غير منازع، لأنها أعظمهم حضارة وأشدهم بأسا وأكثرهم مالا في بلدها البيت الحرام،

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة خمسة عشر يوما نظم خلالها شؤون مكة وفقه أهلها في الدين.

ليلة القدر

قال الله تعالى:

«إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر[26]«

سميت ليلة القدر بذلك لعظمها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومنزلة، وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما، وثوابا جزيلا، وقد يكون معناه التقدير والتدبير وقد يكون القيمة والمقام، وكلاهما يتفق مع هذا الكوني العظيم، حدث القرآن الكريم والوحي والرسالة.

وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها، وقيل: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر على رسول ذي قدر، على أمة ذي قدر، وقيل: لأنه ينزل فيها الملائكة ذوو قدر وخطر، وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة.

---

[26] من سورة القدر، االمعجم الأوسط للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، لقرطبي الجامع لأحكام القرآن، جـ / 20 ص: 129. سيد قطب، في ظلال القرآن، السيرة النبوية لابن هشام.

خص الله سبحانه وتعالى هذا الشهر المبارك هذا الشهر العظيم بنزول القرآن الكريم فيه، وقال:»إنا أنزلناه في ليلة القدر»، في ليلة مباركة، ليلة الحكم، والمعنى ليلة التقدير، وهي من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشري، «وما أدراك ما ليت القدر» فهي ليلة عظيمة ، وسميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، وقال «ليلة القدر خير من ألف شهر».

لقد بين الله سبحانه وتعالى فضلها وعظمتها وفضيلة الزمن إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي هذه الليلة يقسم الله سبحانه وتعالى الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر، وقال بعض المفسرين: أن العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيه ليلة القدر، فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكها، في القيام والصيام والجهاد في سبيل الله، أي أنها سلامة وخير كلها لا شر فيها إلى طلوع الفجر، لا يستطيع الشيطان وغيره أن يعمل فيها سوءا ولا أذى، وفي هذا الشهر المبارك تهبط من كل سماه، ومن سدرة المنتهى، فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس، إلى طلوع الفجر، وذلك في قوله تعالى»تنزل الملائكة» وقال: «والروح فيها بإذن ربهم» أي جبريل عليه السلام، وقيل الرحمة ينزل بها جبريل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة جعلوا حفظة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة، وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى، وقيل إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة، «يتنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده» وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة، يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى» والكبكبة: – الجماعة المتضامة من الناس وغيرهم- «سلام هي حتى مطلع الفجر»، وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن.

وقد اختلف العلماء في تعيين ليلة القدر والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين، وفي حديث أبي سعد الخدري: أن الرسول صلى الله عليه وسلام قال: «التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة نبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى» رواه مسلم، قال مالك يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين، وقيل ليلة سبع وعشرين، وقد مضى دليله، وهو قول علي رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبي بن كعب، وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان متحريا ليلة القدر، فليتحرها ليلة سبع وعشرين»، وقال أبي بن كعب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين» وقال أبو بكر الوراق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر -شهر رمضان- على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي، وأيضا فإن ليلة القدر كـرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين.

ومن علامتها: أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها، ومن فضائلها وحسبك بقوله تعالى: «ليلة القدر خير من ألف شهر» وقوله تعالى»تنزل الملائكة والروح فيها» وفي الصحيحين «من قام ليلة القدر إيمانا

واحتسابا غفر الله له ما تقدم من ذنبه» رواه أبو هريرة، وذلك ليكون القيام استحياء للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة.

وفي الحديث «أن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها ولا يستطيع أن يصيب فيها أحدا بخبل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر»وقال الشعبي: وليلها كيومها، ويومها كليلها.

فليلة القدر هي التي سطع فيها نور الهدى وكانت فاتحة التشريع الجديد الذي أنزل الخير البشر، وكان فيها وضع الحجر الأساسي لهذا الدين الذي هو آخر الأديان الصالح لكل زمان ومكان، هي خير من ألف شهر من الشهور التي كانوا يتخبطون فيها في ظلام الشرك وضلال الوثنية، ولذلك حق على المسلمين أن يتخذوا من ليلة القدر عيدا لهم إذ فيها بدأ نزول الوحي على نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي وجه المسلمين هذه الوجهة الصالحة النافعة، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياطته بأنفسهم وأموالهم شكرا له على نعمه ورجاء مثوبته.

فهي عيد للمسلمين لنزول القرآن الكريم فيها، وهي مهرجان عجيب شهدته الأرض في هذه الليلة، التي فرق الله فيها من كل أمر حكيم، وهي ليلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك، وهي ليلة كلها سلامة وأمن، وكلها خير وبركة من مبدئها إلى نهايتها، ونحن المؤمنون مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل هذه الذكرى لتظل أرواحنا موصولة بها في صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حد التفكير، والله ورسوله أعلم.

أسمى الأخلاق

مفهوم الأخلاق في الإسلام، يعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك التي يحددها الوحي على نحو يحقق الغاية من نزوله.

والأخلاق ليست جزءا من نظام الإسلام العام، بل هي جوهر الإسلام وروحه السارية في جوانبه جميعا.

وحقيقة الخلق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقا، لأنه يصير كالخلقة فيه، أو ما طبع عليه الإنسان من طبع كريم، ويقال: الخلق والخلق، وهما عبارتان مستعملتان معا، فيقال فلان حاسن الخلق، أي حسن الباطن والظاهر، والخلق هنا مفتوحة لأنها تعني الصورة الظاهرة للإنسان، وأما ما جاء منها بالظم، فهي الصورة الباطنية للإنسان، ولكل واحد منهما صورة، إما قبيحة وإما جميلة، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الحسد المدرك بالبصر.

وهو ما جاء في قوله تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم[27]« وقوله: « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين[28]«

فهي شهادة كبرى وتكريم عظيم من الله العلي الكبير إلى رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، يسجلها ضمير الكون وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن خلقه كان القرآن[29]، وقالت: ما كان أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، ولذلك قال الله تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم» ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأوفر.

والعلاقة وثيقة بين الإيمان والخلق عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله" أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"، وللخلق ثقله في ميزان الآخرة "ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن"[30]

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله تعالى ليبغي الفاحش البذيء» وقال عليه السلام: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه

---

[27] سورة القلم الآية: «4»

[28] « سورة الأعراف الآية: «199»

[29] راجع الحديث في مسند أحمد 2 / 381، وصحيح مسلم 1 / 513.

[30] مسند أحمد 2 / 250 ، ومختصر سنن أبي داود.

قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عليه السلام عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: « الفم والفرج»، وقال عبد الله بن المبارك أنه وصف عليه الصلاة والسلام حسن الخلق فقال: «هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى»، وعن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون»، والمتفيقهون: المتكبرون.

وسئل صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين»، وتتألف هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة الإسلامية في المأمورات والمنهيات، فقوله «خذ العفو» دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين.

ويدخل في قوله تعالى: «وامر بالمعروف» ، صلة الأرحام وتقوى الله في الحلال، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

ويدخل في قوله تعالى: «وأعرض عن الجاهلين»، الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

قال جابر بن سليم: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو جالس عليه برد فيه طرائق حمر، فقلت السلام عليك يا رسول الله فقال «وعليكم السلام» فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها قال: «أدن ثلاثا»

فدنوت فقال: «أعد علي» فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء المستقى وإن امرؤ سبك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا أو عليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى»، وقال عليه السلام، «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الوجه».

وقد روى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال:» أمرني ربي بتسع الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة».

ومما جاء في الأثر عن فضيلة حسن الخلق، قول أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد، وقال وهب بن منبه: مثل السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينها.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال.

وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بينه الله في كتابه العزيز»إن أكرمكم عند الله أتقاكم» قيا فما الحسب؟ قال: أحسنكم أفضلكم حسبا، وقال: لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق.

ثم قال صلى الله عليه وسلم:»هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك».

وقال علي رضي الله عنه وعطية: هو أدب القرآن، وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه.

وخلاصة القول أن ما جاءت به هذه الآية الكريمة من آداب الدين وقواعد اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الإنسان، التي هي من أسس قواعد التشريع الإسلامي في المأمورات والمنهيات التي تلي في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد، وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين»، وقد ضمنها مقاصد ثلاث، فذكر فيها:

- العفو: وهو السهل الذي لا كلفة فيه.
- وذكر الأمر بالمعروف: وهو ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه.
- وذكر فيها الإعراض عن الجاهلين: وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم.
- فمن استوت فيه هذه الخصال الثلاث، واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا.

إذا فلا قيمة للعبادة إن لم تقترن بالخلق الحسن، لأن الأخلاق تحقق تماسك الحياة الاجتماعية ودوامها، وتؤدي إلى التقدم العلمي والحضاري، وتدعو إلى التكامل فيها، وقد جمعها محمد بن أيمن[31] في أمرين إذ يرى:

إن المكارم كلها لو حصلت رجعت بجملتها إلى شيئين
تعظيم أمر الله جل جلاله والسعي في إصلاح ذات البين

[31] المحمدون من الشعراء، ص: 115.

فضيلة العلم والتعلم

لقد رفع الإسلام منزلة العلم، وشرف العلماء لأنهم أكثر الناس خشية لله، وكان مدادهم كدماء الشهداء في ميزان الآخرة.

وقد وردت آيات كثيرة تدعو إلى القراءة وطلب العلم، وذلك حسبما ورد في جميع هذه الآيات المستدل بها في هذا الموضوع، والأحاديث النبوية الشريفة، ودلت على أنهم هم الذين يخافون قدرته، ويعلمون أن الله على كل شيء قدير، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية، فذاك هو العالم المؤمن الحكيم.

ومن هذه الآيات قوله تعالى:

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات[32]«

وقوله تعالى: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[33]«

وقوله: « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم[34]«

---

[32] سورة المجادلة. الآية:»11«

[33] سورة يوسف الآية: «9».

وقوله: « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا[35]«

وقوله: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» [36]

وقوله: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلوها إلا العالمون[37]

وقوله: «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم» [38]

والعلم هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل العالم إلى العلوم كلها، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعن علي رضي الله عنه قال: إن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها.

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل، وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار جهلا، وقيل لسعد بن ابراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاكم لربه عز وجل، وأسند الدار مي أبو محمد عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن فضل العالم كفضلى على أدناكم-ثم تلا هذه الآية- «إنما

---

[34] سورة يوسف الآية: «9».

[35] سورة القصص. الآية: «80».

[36] سورة فاطر. الآية: «28».

[37] « سورة العنكبوت.الآية «43».

[38] سورة الأعراف: الآية: «52».

يخشى الله من عباده العلماء»، إن الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضيه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير»، والخشية في قوله تعالى:»إنما يخشى الله»

فهي في هذه القراءة استعارة ، والمعنى إنما يجلهم ويعظمهم، وفي قوله تعالى: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» والمراد هنا بهذه الآية الكريمة، كما أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، والذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم»إنما يتذكر أولوا الألباب» أي أصحاب العقول من المؤمنين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده» وقال عليه السلام «العلماء ورثة الأنبياء»، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال عليه السلام، «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد: أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»

وقال عليه السلام «يستغفر للعالم ما في السماوات والأرض»، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السماوات والأرض بالاستغفار له.

وقال عليه الصلاة والسلام، «إن الحكمة تزيد الشرف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملكوت» وقال عليه السلام» خصلتان لا يكونان في منافق: حسن سمت وفقه في الدين»، وقال عليه السلام» أفضل الناس المؤمن

العالم إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه»، وقال عليه السلام» الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينة الحياة وثمرته العلم».

وقال صلى الله عليه وسلام «لموت قبيلة أيسر من موت عالم»، وقال صلى الله عليه وسلام: «إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه قليل قراؤه وخطباؤه قليل سائله كثير معطوه، والعمل فيه خير من العلم، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائله العلم فيه خير من العمل»، وقال صلى الله عليه وسلام «من سلك طرقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة»، وقال عليه السلام « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله، وقال الحسنة في قوله تعالى:»ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة، وفي الآخرة هي الجنة،

ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه عن العلم ومكانته عند الله، لأنه مغرس الفخر ومزيل العمى والمعين على الدين الذي يرفع المنزلة، لقد طلبه ناشئا، واجتهد فيه حتى ملك نواصيه، فعرف به فقيها، وهو يرى في تحصيله شروطا ستة، وهي،

«ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان»

كما أنه يرى أن العلم يذكي عقول أصحابه لأنه يساعد على فك المعمى من الأمور الدينية والقضايا ذات الخلق الصدق والبر ليوم الآخرة، فيقول في ذلك[39]:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي من وصـــــل غانية وطيب عناق
وألذ من نقـــر الفتاة لدفها نقـــــري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طربا لحـل عويصه في الدرس أشهى من مدامـة ساق
وأبيت سهران الدجى وتبيته نوما وتبغي بعد ذاك لحـــــــاقي

والعلم عنده انه لا يدرك إلا بالجد والاجتهاد، قوله:

لا يـدرك الحكمة من عمره يكـدح في مصلحة الأهل
ولا ينـال العلـــم إلا فتى خـال من الأفكار والشغل

ولكنه يؤكد على خدمة العلم وصيانته، وعدم الاستهانة به ومنحه لغير أهله، فيقول:

العلم من فضله، لمن خدمه أن يجعل النـــاس كلهم خدمـه
فواجب صونـــه عليه كما يصون في الناس عرضـه ودمه
فمن حوى العلم ثم أودعـه يجهله غير أهلـــــه ظلمـة

---

[39] الجوهر النفيس ص: 39.

ويقول أبو الحسن الوراق البغدادي[40]، عن النفع المرجو من العلم، قوله:

إذا أنت لم ينفعك علمـك لم تجد
لعلمـك مخلوقا من الناس يقبله
وإن زانك العلم الذي قد حملته
وجـدت له من يجتنيـه ويحمله

ويقول صالح بن عبد القدوس[41]،

العلم زين وتشريف لصاحبه فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
كم سيد بطـــل آباؤه نجب كانوا رؤوسا فأمسى بعـــدهم ذنبا
ومقرف خامل الآباء ذي أدب نال المعـــــالي والآداب والرتبا
العلم كنز وذخلر لا تعـــادله نعم القرين إذا ما عاقـــل صحبا
اشدد يديك به تحمـد مغبته به تنال الغنى والديـــن والحسبا

وقد تحدث الكثير من شعراء الإسلام عن شرف العلم وقدسيته، والحث علة اكتسابه، فهم يرون أن العلم زينا وشرفا لصاحبه، يرتفع به الخامل ويتضع من انقطع عنه وإن كان ذو نسب.

---

[40] طبقات الشعراء ص: 367، وفوات الوفيات جـ / 2 / 562.

[41] وينسب للحكم بن قنبر، الأماتلي 3 / 123.

ويبقى أن العلماء والفقهاء هم أكثر من غيرهم حثا على طلب العلم، وكسب الأدب لقيمتهما الرفيعة، لأنهم يرون أن قيمة المرء ما يحسنه، وفرق كبير بين صاحب الحجة وبين العي.

الأمانة

سميت بالأمانة لأنها حقوق أوجبها الله على المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد وأمرهم بالمحافظة عليها دون الإخلال بشيء منها.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالأمانة، فقيل إنها الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد، وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال، فقال ابن مسعود: أنها في أمانة الأموال أي ودائعهم التي يودعونها عند غيرهم، وروي أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال، وقيل هي الأمانة في الحديث وعدم الزيادة عليه، وهي تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال.

وفي قوله تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها[42]»،

فحسب سياق الآية الكريمة[43] أن الله سبحانه وتعالى عرض الأمانة على أهل السماوات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب، أي

---

[42] سورة الأحزاب الآية: 72.

[43] الجامع لأحكام القرآن ، جـ / 14 / ص: 253 وما بعدها.

أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها، وأشفقت وقالت:لا أبتغي ثوابا ولا عقابا، وكل يقول هذا أمر لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخرن له كما جاء في قوله: « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم»، «وحملها الإنسان» .

وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام، لكن عرضها على الإنسان كان إلزاما، وقد ضرب الله مثلا بهذه الآية من أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها أنها لا تطيق حمل ثقلها لما فيها من الثواب والعقاب.

«فحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» ظلوما لنفسه، جهولا بما فيها وبقد ما دخل فيه، أي أنه قد التزم بالقيام بحقها وقد عهد الله عليها، بما فيها من أمره ونهيه وحله وحرامه، من غير أن يدعى لها، فهي في عنقه وفي أعناق ذرية إلى يوم القيامة، وأما المقصود بالإنسان في هذه الآية الكريمة آدم عليه السلام، الذي ما تم له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة، وقيل «الإنسان» النوع كله، «وقد حملها الإنسان» على ضعف منته وصغر جرمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره، كما أنه ركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر في عواقب الأمور، ورغم كل ذلك كلفناه بتلك التكاليف لتخفف من سلطانها عليه، وتكبيت من جماحها حتى لا توقعه في مواقع الردى.

ثم بين الله سبحانه وتعالى عاقبة تلك التكاليف فقال: «ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشوكين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما» فاختصاص الإنسان باختيار الأمانة، وأخذه على عاتقه

أن يعرف بنفسه ويهتدي بنفسه، ويعمل بنفسه، ويصل بنفسه، أن يتحمل عاقبة اختياره، وليكن جزاؤه من عمله، فأبى الطاعة والانقياد لها من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وقد مد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات، فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف، نتيجة جهلهم بعواقبها وعدم تداركهم ذلك بالتوبة، «وكان الله غفورا رحيما» ستارا لذنوبهم كثير الرحمة بهم، فقبل توبة من أناب إليه وأخلص له العمل، وتلافى ما فرط منه من الزلات، وأثابه على طاعته له بالفوز العظيم، والله ورسوله أعلم.

الإحسان

الإحسان: هو الطاعة والعبادة لله سبحانه وتعالى، ومنه الحديث، ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه" وقيل هو أمر بصلة المساكين، لأنهم هم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم.

وهو مصدر أحسن يحسن إحسانا، وهو على معنيين: أحدهما متعد بنفسه، كقولك أحسنت كذا، أي حسنته وكملته.

وثانيهما متعد بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به.

قال الله تعالى: «وأحسن كما أحسن الله إليك[44]«

وقال تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان[45]«

وقال تعالى: «وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين[46]«

---

[44] سورة القصص الآية «77»

[45] سورة النحل، الآية: «90»

وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معا، فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، وقيل هو أمر بصلة المساكين، وقيل العبادة، «أن تعبد الله كأنك تراه»، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعا، واختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان، قال ابن عباس: العدل لإله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة، وقال سفيان بن عيينة: العدل هاهنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية، وقال على رضي الله عنه: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل، وقال ابن عطية : العدل هو مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، وهو غير واجب ولكنه تفضل منه، لأن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم

وجاء الإحسان بمعنى الأمر كقوله تعالى: «وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان» قال عكرمة: أي هل جزاء من قال لإله إلا الله إلا الجنة، وقيا: هل جزاء من احسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة.

والإحسان التكميلات والمندوب إليه وذلك حسبما يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل بقوله:»أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو إتقان العبادة ومراعاتها بآدابها المصححة المكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلال حالة الشروع وحالة الاستمرار

---

[46] سورة البقرة الآية «195».

فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة وهو المراد بقوله بقول جبريل عليه السلام.

لأن أرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين، أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وثانيها لا تنتهي إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه وتعالى مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين[47]«وقوله: «إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه[48]«

وقال ابن العربي: العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر، وقيل هو الخلق وبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سر ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى.

وأكثر ما يكون الإحسان في المعاملات، قال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء» وقال عيه السلام «اسمح يسمح لك» وقال صلى الله عليه وسلم: «من انظر معسرا أو ترك له حسابه الله حسابا يسيرا» وفي لفظ آخر «أظله الله تحت ظله عرشه يوم لا ظل إلا ظله»، وقال صلى الله عليه وسلم: «من أفرض دينارا إلى أجل

---

[47] الشعراء الآية: 26 .

[48] سورة يونس الآية: 10 .

فله بكل يوم صدقة إلى أجله، فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة».

ومن الإحسان فيه حسن القضاء، وقال صلى الله عليه وسلم، «خيركم أحسنكم قضاء» ومهما قدر الإنسان على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استحضار أخيه، وقال صلى الله عليه وسلم، «من أقال نادما صفقته أقاله الله عثرته يوم القيامة.

والإحسان يكون في طاعة الله سبحانه وتعالى، كما يكون في الإنفاق، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، وهو سبب الفوز ونيل السعادة والنجاة من النار.

فضيلة الصبر

الصبر، خصلة رفيعة في أخلاق المسلم، وحلية تزين نفس المؤمن، وهو يعوض صاحبه كثيرا عما فاته وفقده حتى يصبح مطمئن القلب، سالي النفس في حياته اليومية.

أو هو حسن الرضى بنتائج مبادرته في الحياة، بعد أن أخذ بأسبابها القريبة والبعيدة، فنوائب الدهر وشدائد الزمان تخف وتهون على صفات الصبر.

ويرى الكثير من الفقهاء أن الصبر مسلاة الهموم، وهو نعم القرين، فكثيرا ما يفوز صاحب الصبر بحاجته، إذ يأتيه الفرج بعد أن تسد عليه مسالك الحياة.

وهو في اللغة: الحبس، يقال صبرت نفسي على الشيء حبستها.

والصبر صبران: صبر عن مصيبة الله، وصبر على طاعة الله فهذا عابد، فإذا صبر أورثه الله الرضا بقضائه، وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات، ويقال: قتل فلان صبرا، أي أمسك وحبس حتى الموت.

والصبر عن المعاصي، صبر على الطاعة، وهو من باب جهاد النفس وقمعها على شهواتها ومنعها من تطاولها.

وقال عليه الصلاة والسلام: «الصبر نصف الإيمان» فالإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، فهما وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمى نفسه صبورا شكورا.

وحكى عن علي رضي الله عنه « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» قال: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها، ولا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهي عنه، فلا مقدار لأجره، وقال قتادة: لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان، حدثني أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»،

وقال الشعبي: فالصابر يجازى بغير تقدير، وقيل يزاد على الثواب،وقيل «بغير حساب» أي بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا،

وقال تعالى:

«وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا « أي قادة وقدوة يقتدى بهم في دينهم، بدعوتهم الخلق إلى طاعته سبحانه وتعالى بما أمرهم به من هداية الناس إليه، ثم قيل الأنبياء عليهم السلام، قال قتادة: وقيل المراد الفقهاء والعلماء، وبصبرهم وقوة إيمانهم على الدين وعلى البلاء جعلهم الله أئمة.

وقال تعالى: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا[49]«

---

[49] سورة السجدة الآية: «24»

وقال: «ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملـون[50]«
وقال : «أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا[51]«
وقال : «إنما يوف الصابـرون أجرهـم بغير حساب[52]«

وقال »وبشر الصابرين» أي بالثواب على الصبر، وحتى يكون ثوابه كبيرا عند الله، وغير مقدر، يجب عليه أن يتمسك بالصبر الجميل عند الصدمة الأولى، والمقصود به الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب وذلك عندما تهجم المصيبة عليه بحرارتها وقوة تأثيرها، في النفس والعقل معا، فحينئذ تختبر قوة القلب عنده وتثبته في مقام الصبر.

وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك، ولذلك قيل: يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لا بد للأحمق منه بعد ثلاث.

وقيل «الصابرون» هنا الصائمون، دليله قوله صلى الله عليه وسلم: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا»، وقال تعالى: «وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا»، فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى:»الصوم لي وأن أجزئ به»، فأضاف الصبر إلى نفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: «واصبروا إن الله مع الصابرين» وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى: «أولئك عليهم صلوات من ربهم وأولئك

---

[50] سورة النحل الآية: «96».
[51] سورة القصص. الآية: «54».
[52] سورة الزمر، **الآية: «**10»

هم المفلحون» فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين، فالصلاة فيها سجن النفوس، والصوم كذلك يمنع شهوة المرأة والطعام والشراب، فجوارحه تكون كلها مقيدة عن جميع الشهوات وقال أهل العلم: كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يحثا حثوا ويغرف غرفا.

وقال علي كرم الله وجهه: بني الإسلام على أربع دعائم، اليقين والصبر والجهاد والعدل، وقال رضي الله عنه، الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له، وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعم العلاوة للصابرين، يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار إلى قوله تعالى:

«أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»، وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر، والله ورسوله أعلم.

حقوق المسلم على المسلم

وميدان الأخلاق يتمثل في أسلوب التعامل مع الآخرين من ناحية، وفي الأخلاق الذاتية من ناحية أخرى، "فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[53].

ومن حقوق المسلم نحو أخيه، الصداقة والأخوة الحسنة، وتتمثل في المساعدة والمداراة، والمودة والوفاء والشكر على حسنته، والصفح عن أخطائه وحفظ الأسرار وعدم التحاسد.

ومن حقوقه أيضا، أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظ به الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

---

[53] صحيح مسلم 1 / 65. طبعة الحلبي، ومناقب الشافعي للرازي ص: 204

قال الله تعالى:

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم[54]«

وقال تعالى: « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين»[55]

وقد روى أنس رضي الله عنه رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أربع من حق المسلم عليك: أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهم رضي الله عنهما في قوله تعالى:»رحماء بينهم» قال يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال: اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وأنفعنا به، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال: اللهم اهده وتب عليه واغفر له عثرته، ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.

«ورحماء بينهم» تعني أيضا أن يرحم بعضهم بعضا، وقيل متعاطفون متوادون.

وقال النعمان بن بشر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر»، وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»،

---

[54] من سورة الفتح. الآية «29».

[55] سورة الأعراف. الآية: «199».

ومنها أن لا يؤذي أحدا من المسلمين بفعل ولا قول، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وقال صلى الله عليه وسلم، «أتدرون من المسلم فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، قالوا: فمن المؤمن؟ قال: من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم قالوا: فمن المهاجر؟ قال من السوء واجتنبه»

وقال رجل يا رسول الله ما الإسلام قال: أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك».

وقال الله تعالى لنبيه الكريم « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين»، وفي هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى أنها مركبة من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله»خذ العفو» دخل فيه صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: «وأمر بالمعروف» صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وأما في قوله: «وأعرض عن الجاهلين» الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن سليم، قال جابر بن سليم أبو جرى: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليكم يا رسول الله، فقال: «وعليكم السلام» فقلت إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها، قال: «أدن» ثلاثا فدنوت فقال: «أعد علي» فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء السقي وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى»

وروى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله: « خذ العفو وأمر بالمعروف» قال: ما أنزلت هذه الآية إلا في أخلاق الناس، وقد يقال خذ العفو منه، أي لا تنقص عليه وسامحه، وسبب نزول هذه الآية والله أعلم، فإنه لما أمره بمحاجة المشركين دله على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جر المشركين إلى الإيمان، أي أقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم تيسر، تقول: أخذت حقي عفوا صفوا، أي سهلا.

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وقال صلى الله عليه وسلم «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ويقول ابن خلدون[56]: «فالإنسان مدني بالطبع يحتاج إلى غيره وغيره يحتاج إليه، فمخالطة الإنسان لبني جنسه تكون في حدود الأدب، والأدب يكون على قدر حقه وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة، والرابطة درجات، القرابة وهي أخصها، أو أخوة الإسلام وهي أعمها، ويدخل في ذلك الأخوة الصداقة والصحبة والجوار، وكل ذلك يختلف بحسب قربه أو بعده، ويظهر التفاوت عن النسبة»،

وعليه فإننا نرى أن حقوق المسلم على أخيه المسلم تؤدي إلى تحقيق رضا الله وكسب الآخرة، فهي خصلة رفيعة تكشف عن نبل صاحبها وشرفه، وتبين عن كرم خلقه وأصالته، وقد حث الإسلام على التخلق بها، ونهى عن الغرور وعاب التكبر لأنه مفسدة للدين، منقصة للعقل، مجلبة للذم.

[56] ابن خلدون المقدمة ص:298.

النفقة الطيبة

فمن كمال الشريعة الإسلامية أن تتقرب فيها الأحكام من النفوس، ويزاح فيها ما يجوب بالقلوب من شبهة، وتمثيل المعقول بالمحسوس، والمجهول بالمعلوم، المستمدة من القرآن الكريم في بيان هدايته التي تهدف إلى إصلاح البشرية في كل ما يعن لها من مشكلات دينية واجتماعية وأخلاقية.

كما هو الشأن في هذه الآية الكريمة التي نلمس فيها من الاتعاظ والتأمل والتدبير لما اشتملت عليه من بيان الحقائق الحقة والحكم الجليل والآداب الرفيعة، وذلك لما جاء فيها من تنويه للمنفقين في سبيله بنية خالصة لا رياء ولا سمعة، ولا متبعة بمن أو أذى، لأن المن والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها، لأن الغاية من وراء الصدقة، هو تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم، وتركهما شرط لحصول الأجر الجزيل والثواب العظيم.

قال الله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق أمواله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه

وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين[57]«

ألفاظ النص:

تبطلوا: من الإبطال وهو جعل الشيء باطلا غير نافع.

المن: المراد به هنا أن يمن المنعم على من أنعم عليه على سبيل الفخر.

الأذى: أن يتطاول المنفق على من أنفق عليه من ذوي الحاجات، والمن والأذى إنما يحبطان العمل من حيث قبوله والثواب عليه.

رئاء: مصدر راءى، وهو أن يري الإنسان المرائي الناس ما يفعله من البر، حتى يثنوا عليه ويعظموه بذلك.

صفوان: حجر كبير أملس.

وابل: مطر شديد.

صلدا: أي أجرد أملس نقيا من التراب الذي كان عليه.

بيان النص:

وفي هذه الآية يخاطب المؤمنين الذين أسلموا أنفسهم لله وأذعنوا لقبول أوامره ونواهيه، ونهاهم نهيا صريحا أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى فقال: « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» فالنفوس عادة ما تكون مغرمة بذكر ما يصدر منها من الإحسان تمدحا وتفاخرا، وذلك طريق إلى المن والأذى، «كالذي ينفق أمواله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر» فالذي

---

[57] سورة البقرة..الآية: «264».

ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر عمله باطل، أي أنه يعمل ذلك لأجل أن يروه الناس فيحمدوه ويكثرون له الشكر والتقدير.

ثم ضرب لهم مثلا ليوضح لهم إبطال ثواب نفقة المرائي»فمثله» أي أن صفة الذي يرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر في عمله من صدقة «كمثل» تراب على حجر أملس نزل عليه ماء مطر شديد فأزاله وترك الحجر صلدا نقيا لا تراب عليه، لأن الصفوان ينتفع به ما دام التراب عليه «صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا» فالمرائي كان منتفعا بنفقته وصدقته لو لم يرائي لكنه لما راءى أذهب الإخلاص الذي هو شرط في انتفاع المنفق بصدقته، فالرياء مذهب الإخلاص كالوابل الذي أذهب ما على الصفوان من تراب.

وهكذا الذي يتبع صدقته بالمن والأذى فإنه لا ينتفع بما أنفقه من صدقات.

فالمثل هنا موعظة بليغة وعبرة جازرة للمؤمنين من أن يتبعوا صدقاتهم بهاتين الرذيلتين، كما جاءت بالوعيد الشديد أيضا على كل من اتبع صدقته بالمن، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا انظروا هل تجدون عندهم جزاء».

وما رواه ابن ماجة: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية فأول ما يدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسول الله قال: بلى يا رب قال فماذا عملت فيما عملت؟ قال كنت أقوم الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال:فلان قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى

بصاحب المال فيقول الله له: ألو أسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال: فما عملت فيما أتيتك، ؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جواد .....الحديث».

ومما ورد في المنان ما أخرجه أحمد ومسلم والترميذي وأبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم »ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرت: فقلت خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسلم والمنان والمنفق سلعته بالحلف والكذب».

فالمثل تحذير للمؤمنين من أن يخلطوا أعمالهم الصالحة بما يكون سببا في إحباطها بما فعلوا رئاء الناس ولا يجدون له ثمرة لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال «لا يقدرون على شيء مما كسبوا» ثم أخبر الله أنه لا يهدي القوم الكافرين فقال: «والله لا يهدي القوم الكافرين» أي أنه لا يصددهم إلى إصابة الحق في نفقاتهم ولا يهديهم إلى ما فيه خيرهم ورشادهم، لأنهم لم ينعموا بأن ما عندهم ما ينفقون هو من عند الله، وإن أخرجوها أخرجوها بغير رضوان الله،.

وعليه يجب على المؤمن أن لا يتبع صدقته بالمن والأذى حتى لا يكون مثل الذي راءى في صدقته لذلك جاء نهي المؤمنين عنه، لأن الصدقة تربى لصاحبها حتى تكون أعظم من الجبل، فإذا خرجت من يد صاحبها خالصة على الوجه المشروع ضوعفت، فإذا جاء المن بها والأذى وقف بها هناك وانقطع زيادة التضعيف عنها.

فضيلة الحلال

الحلال لون من عبادة الله المتميزة، وصورة من صور الإسلام الرفيع، وسمي الحلال حلالا، لانحلال عقدة الحضر عنه، وطلب الحلال فريضة على كل مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم»من سعى على عياله من حلة فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء»

وقال صلى الله عليه وسلم «من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وفي رواية»زهده الله في الدنيا» وروى أن سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة، فقال له: «أطب طعمتك تستجب دعوتك»،

وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم، إن الله ملكا على بيت المقدس ينادي كل ليلة: « من أكل حراما لم يقبل منه صوف ولا عدل» فقيل الصرف النافلة، والعدل الفريضة. وروى الصحيح عن أبي هريرة فال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا

وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم[58]»

وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم[59]»، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»

وقال تعالى:

«ولا تأكلـوا أموالكم بينكم بالباطل[60]«

وقال:. « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما[61]«

وقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين[62]«

الباطل في اللغة: الذهاب الزائل، ويعني الشرك أيضا، والبطلة: السحرة. والخطاب في هذه الآية موجه إلى جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، فيدخل في هذا: القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، وما تطيب به نفس مالكه، أو حرمته الشريعة وإن طابت به

---

58 المؤمنون الآية 51.

59 طه الآية: 81.

60 سورة البقرة لآية: «188»

61 سورة النساء الآية: «10».

62 سورة البقرة الآية: «278».

نفس مالكه كأثمان الخمور والخنازير، وقيل «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» أي بغير حق ولا عوض ولا هبة، وذلك باطل بإجماع، وهو في ذلك قد أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل.

وقال: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله[63]«

وقال:: «ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[64]«

وقد سوى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وغيرها كثير بين النبيين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام، كما أنه شمل الكل في الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى: «إني بما تعملون عليم».

وفي قوله تعالى: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله» هذا وعد ووعيد للذين لم يذروا الربا، والحرب داعية القتل، وقال قتادة: أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجا أينما ثقفوا، «والبهرج: الشيء المباح»، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:»يأتي على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه غباره» وقال عليه السلام: «لدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية في الخطيئة» ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده.

ومن الأكل بالباطل أن يقضي القاضي لك وأنت تعلم أنك مبطل، فالحرام لا يصير حلالا بقاضي القاضي، لأنه إنما يقضي بالظاهر، وروى الأئمة عن أم

---

[63] سورة البقرة الآية: «279».

[64] البقرة الآية: 275.

سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار – في رواية - فليحملها أو يذرها».

وقال صلى الله عليه وسلم، « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه منه شيء»، وقال صلى الله عليه وسلم «العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في طلب الحلال».

والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

المذموم من الأخلاق

لقد ذم الله سبحانه وتعالى الكبر في مواضع كثيرة، وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق[65]«

والاستكبار: الاستعظام، وهو الازدراء بالناس والاحتقار لهم، والمستكبرون، هم المتعظمون الذين يرون أنفسهم أفضل الخلق، فهؤلاء لا يثيبهم الله ولا يثني عليهم لأنهم استكبروا على توحيده ولم يستجيبوا لأنبيائه ورسله، فهؤلاء يبغضهم الله تعالى أشد البغض، وينتقم منهم أعظم الانتقام، وقال العلماء كل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله، وفي الحديث الصحيح، «إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة، يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم»، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم، « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل

---

65 سورة الأعراف الآية: «146»

صور الذر تطؤهم الناس، ذرا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار».

قال تعالى: «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار[66]«

وقال: «إن الذين يستكبـرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخلين[67]«

وقال: «إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخلين»، وقال:«كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار» وقال: «إن الله لا يحب المستكبرين».

أو كما قال صلى الله عليه وسلم «تصغر أجسامهم في المحشر حتى يضرهم صغرها وتعظم لهم في النار حتى يضرهم عظمها»، أخرج مسلم وأبو داود والترميذي وابن ماجة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله ، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، المكبر من بطر الحق، وغمص الناس» والغمص: هو استصغار الناس، والنعمة لم يشكرها، وقال صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة».

وقال صلى الله عليه وسلم» تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أورثت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك ما أشاء من

---

[66] « سورة غافر الآية: «35»

[67] في سورة غافر.الآية: «60»

عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملأها»،

وقال صلى الله عليه وسلم، «إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم أخلاقا وأبعدكم منا الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون» قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون.

وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان، فقال: «أليس بعده الموت».

وقال عليه السلام ، «إن في النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم»، وقال عليه السلام، «اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»، وقال عليه السلام، «من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر، والدين، والغلول».

وعن أبي بكر رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وقد وعد الله سبحانه وتعالى المتكبرين بجهنم، وبالعذاب الشديد خالدين فيها أبدا، فهي بئس المقيل والمقام فهي دار الذل والهوان لهم، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

» لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها»، وهو وعيد من الله يظل يتناول كل متكبر جبار، الذي لا تطاوعه نفسه بسبب ما أوتي من مال أو علم أو جاه في مراعاة حق الله في غيره.

في ذم الحسد

فالحسد معناه الغبطة وهو أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره.

وقد يسمى هذا النوع من الحسد بالمنافسة، ومنه قوله تعالى: «وفي ذلك فاليتنافس المتنافسون» والمنافسة مباحة وهي الغبطة أيظا، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن يغبط والكافر يحسد، وفي الصحيحين: «لا حسد إلا في اثنين» يريد الغبطة وقوله تعالى: « من بعد ما تبين لهم الحق» أي من بعد ما تبين الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الذي جاء به.

وذكر الله سبحانه وتعالى حسد أخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى: « إذ قالوا ليوسف وأخوا أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم» فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه فغيبوه.

والحسد ، نوعان: ممدوح ومذموم: وأما المذموم منه، هو أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه الكريم وذلك في قوله تعالى: «أم يحسدون الناس على ما لآتاهم الله من فضله» وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه وتعالى، وأنه أعلم على من لا يستحق.

وأما المحمود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله عليه الصلاة والسلام « لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»، وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس» ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنصاري فقال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء - وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال- ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معاصي الله، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقته في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء»، فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله،

وقد وردت آيات كثير في ذم الحسد المذموم منها، قوله تعال: «ومن شر حاسد إذا حسد[68]«

وقوله: «لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم[69]«

وقوله: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله[70]«

وقوله: «إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها[71]« .

ومما جاء في الأثر: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته، قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة» وقال عليه السلام « وله منهن مخرج فإذا حسدت فلا تبغ» الحديث، أي إذا وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به.

والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، والحسد في مجمله ممقوت مبغوض مطرود ملعون، والحاسد عدو نعمة الله

وعليه فإننا نستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده بالسعي والجد في إزالة نعمة من يحسده، وينصب شباكه لإيقاع المحسود في الضرر، بأدق

---

68 سورة الفلق، الآية: «5».

69 سورة البقرة الآية: «109»

70 سورة النساء الآية: «45»

71 سورة آل عمران الآية: «120»

الوسائل، ولا يمكن إرضاؤه، ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة، وليس في الطوق دفع كيده، ورد عواديه، فليس لنا بد إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم.

في ذم البخل

جرت عادة القرآن الكريم على مقتضى العدالة والحكمة الإلهية أنه حين يذكر أحوال من أعرض عن هدى الله الحق، وأحوال من اتبعه يشفع ذلك بجزاء كل ترهيب من النار وأهوالها وترغيبا في الجنة ونعيمها.

قال الله تعالى: « ومن يوق شح نفسه».[72]

وقال تعالى: «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة[73]«

وقال: «فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء[74]«

قال الراغب: البخل، المنع، والشح: الحالة النفسية التي تقتضي ذلك. وقيل اللؤم، وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع.

---

[72] : من سورة الحشر.**الآية** : «9».

[73] من سورة آل عمران الآية: «180».

[74] من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. الآية: «38».

فالشحيح أشد من البخيل، لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحسبه.

وأما البخيل هو الذي يبخل بما في يده، والبخل هو الذي أمسك الله تعالى أيديهم على النفقة في سبيل الله فلا يبصرون الهدى، فطوق أعناقهم بها، لا يجدون إلى دفعه سبيلا، لأنه ينقص نفسه أجرها من الثواب، ويبعدها من رضا الله والقرب منه في جنات النعيم.

وروى الأموي عن ابن مسعود أن رجلا أتاه فقال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول» ومن يوق شح نفسه»وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يدي شيئا، فقال ابن مسعود: ليس ذاك الذي ذكره الله تعالى، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل، ففرق بين الشح والبخل.

وليس المراد من تقوى الشح الجود بكل ما يملك، فقد روي أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «برئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة».

والكثير من الناس من يبخل عن النفقة في هذا السبيل رغم المال الكثير الذي يملكه، وهو لا يدري بأن بخله هذا عائد إليه بالضرر إلى نفسه لا على غيره، وهو ما تؤكده الآية الكريم من سورة آل عمران في قوله تعالـ «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة» أي أن هؤلاء يحسبون أن ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى من فضله من مال وعلم وجاه في منعه خيرا لهم، لما في بقاء المال

في يدهم من الانتفاع به في التمتع باللذات وقضاء الحاجات، ولم يعلموا بأن ما بخلوا به سيطوقون به يوم القيامة ويلزمهم ذنبه وعقابه، ولا يجدون إلى دفعه سبيلا.

وقال مجاهد: أن المعنى سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك، ويكون ذلك توبيخا لهم على معنى: هلا فعلتم ذلك حين كان ممكنا ميسورا، ونظير هذا قوله تعالى: «ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم»إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئا إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش إن الله لا يحب المتفحش، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم، الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخا في أصل شجرة طوبى، وشد أغصانها بأغصان سدرة

المنتهى، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، ألا أن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة، وخلق البخل من مقته وجعل رأسه راسخا في شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار، ألا أن البخل من الكفر والكفر في النار»

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل»

وقال علي رضي الله عنه في خطبته، إنه سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى «ولا تنسوا الفضل بينكم»، وخلاصة ذلك هو قوله تعالى:»ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه..... ومن يوق شح نفسه فألئك هم المفلحون».

وبذلك نقول أن تقريب الحكم وتثبيته بطريق ضرب الأمثال معروف في نصوص الشريعة الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة الشريفة، بحيث تقوم الحجة فيه على من ظل عن الهدف الذي ترمي إليه من بيانها للحقائق المستترة والمعاني الخفية.

من كفر بأنعم الله

لقد بين الله سبحانه وتعالى صفة غريبة وحالا عجيبة لـ «قرية» هي مكة المكرمة ليبنه على أنه كما صدق على أهل مكة يصدق على كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمة، «كانت» أي القرية والمراد أهلها «آمنة» يعني ذات أمن من العدو والقتال والجوع والسبي فلا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الخوف من العدو كما يأتي على بعض القرى من إغارة أهل الشر عليها وطلب الإقاع بها.

وقد كان أهل مكة يرحلون إلى الشام واليمن بتجارتهم فلا يتعرض لهم أحد، فيأتون بالرزق والميرة إلى أهلهم.

قال تعالى:

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[75] ».

[75] سورة النحل الآية 112

وذكر القرآن الكريم أن لهم رحلتين غير هاتيك الرحلتين، فقد كانت لهم رحلة إلى الحبشة ورحلة إلى بلاد فرس.

وذكر القرطبي في تفسيره لسورة قريش، أن أول من سن لقريش الرحلة هاشم بن عبد مناف، وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم، واتبع هاشم على ذلك أخوته، فكان هاشم يؤالف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس،.

وكانت تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجاه هؤلاء الأخوة أي بعهودهم التي أخذوها بالآمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي، وفي هذا النص القرآني امتنان على قريش في وقت كان فيه الأمن مضطربا، وكانت السبل تكاد تغص بقطاعها، وهم يتقلبون بأموالهم في البلاد جنوبا وشمالا وشرقا وغربا، دون أن تمتد إليهم يد عادية ونفوسهم «مطمئنة» ساكنة لا قلق فيها ولا اضطراب بخلاف غيرهم من القبائل فإنها لا تجد هذا الاستقرار الذي تتمتع به والأمن الذي ترفل به» يأتيها رزقها» من سائر البلدان التي تعيش عليه وتنتظم حياتها به، «رغدا» واسعا يتجدد لهم تجددا مستمرا من غير انقطاع «من كل مكان» أي من كل ناحية التي حولها ، وذلك عن طريق رحلاتهم المتعددة إلى الشام واليمن والحبشة وفارس ومصر، فهم لا يحتاجون إلى الانتقال بسبب ضيق الرزق، لقد توفرت لهم عوامل البقاء من صحة ومال وجاه وأمن دائم واستقرار.

لكن كيف كان موقفهم حينما أتاهم النذير وأعلمهم بوجه الحق فكفروا بذلك ولم يتبعوا ما بين لهم «فكفروا بأنعم الله» فكفروا بهذه النعم الكثيرة العظيمة الفائدة، وقابلوها بالجحود والكفران لكونهم لم يقوموا بواجب شكرها «فأذاقها

الله لباس الجوع والخوف» فابتلاهم الله بالجوع والخوف بعد أن كانوا في سعة وفي أمن.

ولكن هذا الابتلاء بالعذاب الشديد جاءهم «بما كانوا يصنعون» أي بسبب ما كانوا يصنعونه معه من عبادة غيره جل شأنه من الأوثان والأصنام وصد الناس عن سبيل الله إلى غير ذلك من شنائعهم المنكرة.

أخرج البخاري بسنده إلى أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه يفلته قال ثم قرأ «وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد».

لقد تبين من هذا المثل الذي ضربه الله أن التأبي عن قبول شرعه وتكذيب من نزل عليه من رسله يكون سببا في نزول العذاب وإحلال الخوف والجوع مكان الأمن والاطمئنان، فليعتبر أولوا الأبصار وينظروا في الأسباب التي بدلت هذا النعيم.

مظاهر الدنيا

فالحياة الدنيا بصفتها العجيبة وحالها الغريب، الذي يشمل كل صفة من صفات الحياة في صورتها ومآلها، كصفة الماء أي المطر الذي أنزله الله سبحانه وتعالى من السماء فنزل على الأرض فاختلط به نباتها الذي يأكل منه الناس من البر والشعير وغيرهما، والأنعام من الكلاء والحشيش، الذي يمتصه هذا النبات ويختلط به فيمتزج به امتزاجا محكما فينمو النبات ويترعرع وينمو ويزهو «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها» أي أنها استوفت واستكملت زخرفها، بروائها وبهجتها وحسنها من النبات وبلغت كمال رونقها بما اشتملت عليه من الزهور والثمار المختلفة الألوان والأشكال «وظن أهلها « بسبب استكمالها ووصولها شرف الانتفاع وقيمته»أنهم قادرون عليها « متمكنون من تحصيل ثمارها ففرحوا بها وعظم رجاؤهم في الانتفاع بها وبما فيها « أتاها أمرنا ليلا أو نهارا « أنزلنا بها ما قدرناه من الهلاك كالبرد والحر والسموم بغتة من حيث لا يشعرون، فجعلنا نباتها شبيها بما حصد وقطع كأن لم يكن نباتها موجودا «كأن لم تغن بالأمس» كأن لم تلبث ولم تمكث قائمة نضرة بالأمس القريب.

قال تعالى:

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون[76]« إنما : أداة من أدوات القصر.

زخرفها: كمال حسن الشيء، ومن القول حسنه، ومن الأرض ألوان نباتها.

وازينت : تشبيه الأرض بالعروس التي تأخذ الثياب الفاخرة فتلبسها.

حصيدا : أصل الحصد قطع الزرع.

تغن: أصله من غنى فلان بالمكان إذا أقام به.

فيقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، ذلك هو مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها حين يرضون بها ويقنعون عنها.

فالمثل في هذه الآية الكريمة يشير إلى أن الراغبين في متاع الحياة الدنيا ستصل بهم رغبتهم في التمكن منها حتى يظنوا أنهم قادرون عليها فيفاجأون بالحرمان، كما يبين سرعة انقضائها وزوال نعيمها بغتة، وبذلك يبين الله سبحانه وتعالى ويوضح « الآيات « الواردة في حقائق التوحيد وأصول التشريع وأمثال الوعظ والتهذيب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم واستعدادهم لمعادهم.

---

[76] سورة يونس. الآية 24 .

« لقوم يتفكرون » يتمعنون بعقولهم وأفكارهم في معانيها والوقوف على حقائقها فيزنون أعمالهم بموازينها فيتبينون ربحها وخسرانها بالذكر فيعملون بما اقتضاه من مقاصد تعود إلى تهذيب نفوسهم وتزكيتها من كل ما يكون سببا في شقائها.

صورة الدنيا

لقد كان ولا يزال حال الدنيا يتقضى نعيمها ويزول وإن بلغ الغاية في الكمال، فهي أشبه بغيث وقع على الأرض فبعث الحياة في موتها، وأخرج منها زرعا وحدائق ذات بهجة ثم ما لبثت أن بلغت غايتها أن تأخذ في الذبول ثم تجف وتصبح هشيما تذروه الرياح.

قال تعالى:

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[77]«

الغيث، المطر وقيل هو المطر الخاص بالخير الكثير، لأنه يغاث به الناس.

اللعب ، ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح به.

اللهو، ما شغل من لهو وطرب اسم جامع لكل شيء يتزين به.

---

[77] سورة الحديد، الآية: «20»

التفاخر: ادعاء العظمة والكبر والشرف.
التكاثر، التباري في كثرة المال والعز.
الكفار: أي الزراع من كفر الحب أي ستره في الأرض.
يهيج: هاج النبت إذا يبس.
الحطام: ما تكسر من اليبس.

وقد أمر الله عباده بالعلم لينبه من لا يعلم إلى ما يجب أن يعلم حتى يكون على يقظة ووعي مما اشتمل عليه المثل من حقائق لا ريب فيها، وأن متاع الحياة الدنيا لعب يستروح به اللاعب بعد كد وتعب، ولهو يشغل به نفسه فيلهيه عما يهمه من أمور شاقة، وهي زينة يتجمل بها من لباس وكل ما يمكن أن يكون سببا في إظهار المجال الذي تميل إليه النفس، وتفاخر مباهاة بالمكارم من حسب ونسب، وتكاثر في الأموال والأولاد، ومباراة بينكم في كثرة الأموال والفخر بالأولاد وهذه أشياء لا دوام لها في الحياة الدنيا، وكل ذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بمطر حصل بعد جدب ويأس « كمثل غيث أعجب الكفار نباته» فالنبات تأثر بالغيث حتى بلغ غايته في النمو والبهجة، فأعجب الزراع نباته وجعلهم في عجب ودهش من حسن منظره ولكنه وبعد طراوته يبس وجف من الهيج الذي هو اليبس والجفاف « فتراه مصفرا « فاصفر لونه بعد أن كان أخضر ناضرا، أصبح متفتتا متكسرا، « ثم يجعله حطاما».

فالله سبحانه وتعالى لفت نظرنا إلى حقيقة هذه الحياة وأن أحقر من أن تشغلنا عن الحياة الآخرة.

لذلك ختم الآية بقوله: « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور». لمن ركن إليها واعتمد عليها.

فهرس الموضوعات

المقدمة..... 9
في ظل شهر رمضان.....13
عظمة القرآن 17
في فضل القرآن ..... 23.
من هدي القرآن..... 29
معاني الفتح الإسلامي..... 33.
فتح مكة 39
ليلة القدر..... 49
أسس الأخلاق..... 47
فضيلة العلم 53
الأمانة ..... 61.
الإحسان 65
فضيلة الصبر..... 69
حقوق المسلم 73
النفقة الطيبة 79
فضيلة الحلال 95

المذموم من الأخلاق.....87
في ذم الحسد 91
في ذم البخل 95
من كفر بأنعم الله 99
مظاهر الدنيا.....103
صور الدنيا 107
الفهارس.....111